تَوْفيق الحَكيْم

□ اعترافاتٌ قبلَ الرَّحيل

○ سيدتان وراء اتهامى بالبخل، وعداوة المرأة
○ الملكة «نازلى» طلبت طردى من وظيفتى
○ كل إشاعة تناولتنى لم أحاول نفيها
○ قدَّمت للحمار شاياً بلبن فرفض
○ عشنا فى زمن تمتعنا فيه بأكثر من الفلوس

كثيرة هــي الأوراق والصور والكتب الــتي تضمها خزانتي عن الأديب الكبير «توفيــق الحكيم» كرصيد أدبي، وثقافي ألجأ إليه، وأستعين به وقت الحاجة..

وقد فــرض هذا الرصيد نفســه أثناء إعدادي لهــذا الكتاب «صور وحكايات»، وكان لابد، وأن يكون له مكانة على صفحاته بكل البصمات التي تركها «الحكيم» على حياتنا الثقافية والفكرية والأدبية..

كانت مشكلتي من أين أبدأ وكيف؟ .. «فتوفيق الحكيم» الأديب، والفنان، والفيلســوف كتاب مفتوح أمام الناس، ولن أضيف جديداً لــو حاولــت الإبحار في بحور فكــره وأدبه؛ وهنا تقفــز إلى ذاكرتي سلســلة الحوارات التي كان قد أجراهــا على فراش مرضه الأخير، والــتي صاغهــا الكاتب الكبير «صــلاح منتصر» بريشــة فنان قدير ونشــرها بجريدة الأهرام منذ سنوات؛ تلك الحوارات التي تعتبر من الأعمــال الصحفية التي تُعد مرجعاً مهنيــاً إضافة لما تمثله من ثروة فكرية وأدبية مهمة .. وهذه الحوارات «الوثيقة» تحولت بعد نشرها بســنوات لتضمها دفّتا كتاب نفدت طبعاته المتعددة من الأســواق، ووجــدت صعوبــة كبيرة في الحصول على نســخة منه أســتعيد من خلالها ذكريات تلك الحوارات المهمّة، حتى قدم لي المؤلف النسخة الوحيدة التي بقيت في مكتبته، ومنها أنقل بعض السطور.

رسَالةٌ إلى الله

أبدأ بالحديث الذي أثار موجة من ردود الفعل الغاضبة «حديث مع الله»، وبعد أن أجرى "صلاح منتصر" عملية جراحية عاجلة

للمقال استأصل خلالها كلمة «مع» واستبدل بها كلمة «إلى» ليصبح عنوان المقال «رسالة إلى الله» بعد أن استأذنه في هذا الاستبدال؛ المهم أن الغضب استمر، والانتقادات تصاعدت على رغم تعديل الاسم الذي كان بكل المقاييس غريباً على أذن المجتمع بمختلف شرائحه، وفئاته بمن فيهم المثقفون.

يقول «صلاح منتصر» : عندما زرت «توفيق الحكيم» لأول مرة بعد شهرين من مرضه، وعزلته وحده، بلا أصدقاء، أو زُوَّار، أو تليفونات تسأل عنه، وتعطيه أهمية، كان أدق ما ينطبق عليه ما قاله هو نفسه في إحدى مقالاته القديمة: «إن الفنان أو الأديب لا يهدمه الذم أو النقد، بل إنهما يدعمان وجوده، إنما الذي يهدمه ويقتله حقاً هو الإهمال.. إن كفنه منسوج من العنكبوت، ومدفنه تحت غبار النسيان، ولكي يستمد إحساسه بالحياة فلابد من التنويه بأعمال الفنانين، والأدباء من حين إلى حين، وأن نجعلهم يشعرون أن رسالاتهم قد وصلت إلى قلوبنا وعقولنا، وأننا لجهودهم شاكرون، ولصنيعهم عارفون».

ولكن «توفيق الحكيم»، وقد كان يعتقد أنه كتب أعمالاً تستحق الخلود، وجد نفسه بعد شهرين فقط من دخوله المستشفى شخصاً منسياً لا يذكره أحد، وعندما نشرت حديثه الأول تجددت العلاقة التي قُطعت، وأُهمِلت بين توفيق الحكيم والناس.

وفي يوم الأحد ١٥ يوليو ١٩٨٤ نشرت الجزء الثاني من حديثه، وكان أول سؤال فيه: أستاذ «توفيق الحكيم».. إنك لا تطلب شيئاً

لنفسك اليوم: لا مال ولا منصب ولا وسام.. بهذا التجرد الذي وصفت فيه نفسك بأنك تجلس على ضفاف الموت، ماذا تقول للحاكم؟ .. لم تأتني إجابته عن سؤالي مباشرة. كما كانت عادته في الأسئلة السابقة، عندما كنت أشعر أنني مثل لمسة الإصبع على جهاز الكمبيوتر. ما أن أوجه السؤال حتى يفيض بالرد ، هذه المرة لاحظت يديه تقبضان بقوة على عصاه التي يمسك بها، ثم بعد تركيز شديد مكثف من التفكير أحسست به، وأنا أراقبه، وبدأت أسمع صوته ..

قال وهو يتحسس خطى كلماته حتى لا تنحرف عن طريق مرسوم في فكره: لابد أن أبدأ أولاً بتأكيد أنه ليست لدى عُقَد من الماضي أو الحاضر أو المستقبل.. ومع أنني ضد الشعارات إلا أنني لا أستطيع في هذه اللحظة إلا الاعتراف بأنني أسير وفق شعار واحد اسمه «مصلحة مصر» وعندما تأتيني هذه المصلحة من أي طريق أو باب فإنني لا أوصده مرضاة لأي رأي مسبق أو شعار. وإنما أجد لزاماً عليَّ ضرورة مناقشته.

أَكبَرُ مَبلغ تَقَاضَاه

وخلال هذه الحوارات سأل «منتصر» «الحكيم» عن أكبر مبلغ تقاضاه في حياته فقال بدون تفكير: والله .. أكبر مبلغ قبضته كان في رواية «عودة الروح» .. وأنا كنت فاهم عندما جاءوا يشتروا مني الرواية حتى يمثلوها أنني إذا قلت لهم ٥٠٠٠ جنيه يعني

باطفشـــهم ولكني فوجئت بأنهم ذهبوا وأرســـلوا الـ ٥٠٠٠ جنيه، وهذا أكبر مبلغ تسلمته».

قلت: وماذا فعلت به؟

قال ســاخراً: اشتريت به شهادات استثمار، لكن ما فضلوش. ابني الله يرحمه كان عاوز يشــتري أورج، وظل يلح على أمه إلى أن أخذ فلوس الشهادات، واشترى بيها أورج.

قلت وأنا أســتفزه: تعرف أن هنــاك ممثلين بيقبضوا ٨٠ ألف جنيــه في الفيلم هذه الأيام مرة واحدة. (لاحظ أن هذا الحوار كان في عــام ١٩٨٤م، ولم يكــن رقم ما يتقاضاه بعض الممثلين قد وصل إلى أرقام الستة أصفار).

فرد عليّ «توفيق الحكيم» ســاخراً: "دا أنا لو اشــتغلت آخرة ودنيا ما أقدرش أكســب المبلــغ ده .. ملكش حق تقارني بالناس العظــام دول!!.. لكــن إحنا عشــنا زمان تمتعنا فيــه بأكثر من الفلــوس .. بأكثر مــن كل هذه الألوف .. لقد كنا في زماننا القادة المفكرين لهذا البلد، وهذه متعة لا تســاويها أي فلوس، ولكن من هــم القادة المفكرون اليــوم؟.. لا تعرف هناك اهتمامات أخرى .. فيــه انتصارات أخرى مثل انتصارات الكرة. ولذلك أنا أعيش في عالم لا مكان لي فيه ولا مســتقبل.. من الصعب أن أجد لنفســي مكانــا في هذا العالم.. فالكرة لا أهواهــا.. حتى التمثيليات التي يذيعهــا التليفزيون.. ولذلك تجدنــي فعلاً في حيرة .. تقدر تقول إنني متفرج من عالم آخر لم يعد يستمتع بأي شيء في عالم اليوم.

لدرجـــة أنني لم أعد أعرف لـــاذا أعيش.. وربما ما أنتظره هو أن يفكر لي شخص آخر، ويحدد لي مهمة يمكن أن أقوم بها خلال المدة الباقية من عمري.. لو حدد لي هدفاً أعمله في سنتين أعيشهم أعتقد أن هذا ســيفيدني جداً.. لأن هذا يعكس الإحساس بحاجة الآخريــن إليّ، وهذه هــي القيمة التي يمكن أن تبقى لي بعد كل هذا العمر.

البَخيلُ .. عدو المَرْأة

ومثلـــه مثـــل كثير من المشــاهير فقد التصقت بـــه مجموعة من الشــائعات مــن بينها أنه بخيــل، وعدو للمــرأة، ويؤكد «توفيق الحكيم» على أنها مجرد شائعات فيقول:

أما عن «البخل» فقد كانت «أم كلثوم» أول من روّج لها فعندما اجتمعنــا في وليمة فســألت المدعوين: هل ســبق لكم أن حضرتم عزومة على مائدة «توفيق الحكيم»؟ فأجاب جميعهم بالنفي، وأنه ليــس لي مائدة، ثم تقابلنا بعد ذلــك في وليمة كان فيها «العقاد» و«المازنـــي»، فطلبت من كل منهما التبرع لنقابة الموســيقيين التي كانت هي وقتها رئيســتها، وجــاء دوري فأخرجت لها محفظتي فوجدتهــا خالية، فقال لها «المازني»: ابحثـــي في علبة نظارته، لأن «المازني» كان يعلم ذلك، لأني سبق أن قلت له: إن المحفظة معرضة للنشـــل، أمـــا النظارة الطبية فمن ينشـــلها؟ ففتحت علبة النظارة فوجدت ورقة مالية بخمســـة جنيهات، فأخذت النقود،

ثــم أعادت لــي علبة النظارة، وهـــي تقول بما اشـــتهر عنها من النكات: «إنت حاطط الفلوس في عينيك» ، وهكذا شاع عني حب النقــود والبخل، ولا أريد الآن أن أدافع عن نفســـي، فأنا هنا في مجال الاعتراف، ولا محل للإنكار والتبرير، وقد تكون الإشــاعة صحيحـــة.. فليكن.. فحياتي كلها لا أحبها، ولا تســتحق عندي الدفاع عنها.

أمــا عداوته للمرأة فيقول عنها «الحكيم» هذه أيضاً الســـبب في اتهامي بها يرجع إلى امرأة أخرى مشهورة هي «هدى شعراوي»، بسبب مهاجمتي لأسلوبها في تشكيل عقلية المرأة المصرية، وخاصة البنات، بـــأن حذَّرت الجميع من الاســـتمرار في حياة الجواري، وخدمة الرجال، والأزواج في البيت، لأنهن مســـاويات للرجل في كل شيء، واشتكى لي بعض الأزواج من البنات، والزوجات طراز «هدى شـــعراوي» فهِمْنَ رُقيَّ المرأة على أنه استعلاء على الرجل، وعـــدم العمل والخدمة في البيت، فكتبت في ذلك كثيراً، ونصحت الزوجـــة الحديثة بأن تعرف على الأقل أن تهيئ الطعام لزوجها، وأن أســـهل صنف يمكن أن تطبخه له هـــو «صينية البطاطس» في الفرن، ونشـــرت مجلة مشـــهورة حديثاً لي وقتـــذاك بعنوان مثير وهـــو.. «لا توجد زوجة صالحة في مصـــر» ، ولم تكن النتيجة فقط إلصاق «عدو المرأة» بي من «هدى شـــعراوي» وزميلاتها من سيدات مصر، وتلميذاتها من الشباب، ولكن امتد الغضب إلى القصر الملكي نفســـه، وظنـــت الملكة «نازلـــي» – فيما أعـــرف – أن المرأة غير

الصالحة في مصر تشملها هي أيضاً، فطلبت من «على ماهر» باشا، وأظنه كان رئيساً للديوان الملكي، العمل على طردي من وظيفتي بالحكومة، لولا أن وقف بجانبي رجال الأزهر. ولكن بقي دائماً لاصقاً بي وصف «عدو المرأة». ونسيت الأسباب التي كانت الأصل.

ولا أريد هنا أيضاً التبرير أو الدفاع عن نفسي، فربما كنت أكره المرأة فعلاً. لكثرة ما كانت هي السبب في العديد من مشاكلي. ولكني مع ذلك أحبها كأنثى، خلقها الله تعالى لنا مودة ورحمة.

العَصَا.. والحِمَار.. والبِيريْه

ولقد اعتقد بعض الناس أن «البخل» و«عدو المرأة» ليست أكثر من أساليب دعاية عن رجل الفن والأدب. كما كان يُقال عن «برنارد شو» إنه يلبس أحياناً ملابس ملوّنة لافتة للنظر. ويذهب بها في المجتمعات المتلئة بالجماهير مثل سباق الخيل. ولذلك كان من السهل تصور أن هذا يحدث معي، خصوصاً إذا أضيف إليه «العصا»، و«الحمار»، و«البيريه» ونحو ذلك. فهذه الوسائل التي اعتبرت دعايات من ابتكاري كانت لها ظروفها الحقيقية في الواقع. ولم يكن لي يد فيها، أو التفكير في استخدامها. إلا بعد أن شاعت فأبقيت عليها. ولا أحاول تكذيبها. لأني أعتقد أن التكذيب يثبت ولا ينفي. وأن من يُقال

عنه إنه مجنون فيُكــذِّب، ويقول إنه عاقل فإنه يثبت جنونه، ولذلك كل إشاعة عني أستمر فيها، وأؤكدها، ولا أحاول نفيها، إلا مـا كان فيه ضرر للغير، فأنا أعترف بأنني لســت طيباً ولا خيِّراً، ولكني أقسـم أنـي لم أضر أحداً، ولم أتسـبب عمداً في الإضرار بمخلوق، حتى الصرصار الذي يسير أمامي لا أحاول أن أدوسـه بقدمي؛ بل أتركه يعيش حياته، قد أبعده عني بوسائل أخرى تفادياً لضرره.. وفي رأيي أن الدعاية ذاتها لعمل أو إنتاج لا يُشين صاحبه، ما دام لا يضر بالغير، وكنت أرحِّب أن أكون أنــا المبتكر، والمبدع للدعايات عن أعمالي. ولكنني قليل الحيلة والقدرة والتفكير العملي في ذلك.

وحــول حكايته مــع الحمار «حمــار الحكيم» يقــول الأديب الكبير:

أعجبــني حمار صغير عرضت على صاحبه أن يبيعه لي بربع جنيه، لكنه ســخر مني. ودخلــت محل حلاّق فوجدت صاحب الحمــار يلحق بي بعــد أن قبل بيعه بربع جنيــه، وكانت ورطة كبيرة لأني كنت ســاكن في بنســيون، وحاولــت أن أقدِّم للحمار الشاي باللبن لكنه رفض. وفي اليوم التالي سافرت، ومعي حماري لعزبــة أحد الأصدقاء، وتركته هناك، وأخذت أعود إليه من وقت إلى آخــر لزيارتــه لكني بعد فترة غياب عــن زيارته عدت لأراه، وقــد أصبح حماراً كبيراً يحمل «السّــباخ» والأحمال الثقيلة، وهو ما جعلني أتأمل وضعه الجديد.

ورغـــم أن الحكيم عاش ٨٥ عامــاً قدم خلالها مئات الأعمال الخالدة لكنه اكتشــف في نهاية رحلته أنه لم يستطع أن يحقق كل شيء، واعترف بأنه ليس طيباً لكنه أقسم أنه لم يضر أحداً وأن الحياة «يقظة بين نومين» وأن الخلود كلمة اخترعها الإنسان الفاني، وأن الموت هو النوم الأخير.

مع الرئيس حسنى مبارك

مع صلاح منتصر واعترافات قبل الرحيل

أم كلثوم أطلقت شائعة بخله

الحكيم طفلا